Quarterly refereed journal for studies & research (Educational & Human Sciences) No.26

ISSN (Print) **2596 – 7517**
ISSN (Online) **2597 – 307X**

FULL PAPER

Kant's Transcendent Idealism
An Analytical Study

Prepared by

Asso. Prof. Dr. Mohammed Bahar Mohammed Hassan
King Faisal University
College of Sharia and Islamic Studies
Department of Islamic Studies

Abstract:

In this research (Transcendental Idealism according to Kant), I present an example of this light from these doctrines in order to shed light on its founder and the most prominent characteristics of his philosophy. In it, I also became acquainted with an explanation of the concept of models in general, then in the terminology of philosophers, then I showed the benefits that the doctrines share in implementation models, and I drew To talk about these goals, the doctrines want to aim, and in the subject of a major study known as the philosopher Kant, I prepared for the most important foundations and structures on which his philosophy was based, and I became acquainted with mentioning his philosophy in general, successfully reaching the end of the view that he came up with, which is represented by his two books, Criticism of Pure Minds, and he attended Practical members, analytical theory was used, and the research reached a number of results.

Keywords: contemporary philosophy, Kant, transcendentalism.

المستخلص:

هذه الورقة المثالية المُجاوِزة "المتعالية" عند(كانط) أبحث فيها عن نموذج من هذه المذاهب لأسلط الضوء على مؤسسه وأبرز خصائص فلسفته، وتطرقت فيه أيضًا إلى بيان مفهوم المثالية بشكل عام، ثم في اصطلاح الفلاسفة، ثم بينت الخصائص التي تشترك فيها المذاهب المثالية ككل، ودلفت إلى الحديث عن أهداف هذه المذاهب وماذا ترمي إليه، وفي صلب موضوع البحث عرفت بالفيلسوف كانط، وعرضت لأهم الأسس والمؤثرات التي قامت عليها فلسفته، وتطرقت إلى ذكر فلسفته بشكل عام، وأوضحتُ أخيرا النظرة النقدية التي جاء بها والمتمثلة بكتابيه نقد العقل الخالص، ونقد العقل العملي، تم استخدام المنهج التحليلي ، وتوصل البحث إلى عدد من النتائج .

الكلمات المفتاحية: الفلسفة ، المعاصرة ، كانط ، المتعالية.

المقدمة:

لقد ميز الله تعالى الإنسان عن غيره من المخلوقات بأن جعله كائنًا مفكرًا عاقلاً، بيد أن هذه الصفات التي جبل عليها الإنسان كانت مصدراً لسعادته، كما أنها من وجه آخر سببا لتعاسته، وهذا بكل تأكيد راجع إلى طريقة استخدامه لها، وصحة طريقه الذي سلكه، وسلامة منهجه.

لقد أخذ التساؤل يدور في مخيلة الفلاسفة، ولا يكاد يبتعد عن أذهانهم، هل العالم أساسه الروح والفكر؟ أم الطبيعة والمادة؟ أهناك عالم متسامي عن واقع الإنسان ومحيطه؟ أم أن المادة المحيطة بالإنسان هي التي تشكل فكره؟ ومن خلال طرح مثل هذه التساؤلات أخذت المذاهب الفلسفية تتوالى واحدة تلو الأخرى، تارة تجمع هذه التيارات قاعدة عامة وتفرقها الأجزاء الفرعية، وتارة تختلف معها من الأساس وتقف معها على طرفي نقيض.

ولعل من أبرز المذاهب الفلسفية التي حدث بينها ذلك النزاع ما يعرف بالمذهب المادي، ويقابله.

وهذا البحث (المثالية المتعالية عند كانط) أقف على نموذج من هذه المذاهب لأسلط الضوء على مؤسسه وأبرز خصائص فلسفته، وتطرقت فيه أيضاً إلى بيان مفهوم المثالية بشكل عام، ثم في اصطلاح الفلاسفة، ثم بينت الخصائص التي تشترك فيها المذاهب المثالية ككل، ودلفت إلى الحديث عن أهداف هذه المذاهب وماذا ترمي إليه، وفي صلب موضوع البحث عرفت بالفيلسوف كانط، وعرضت لأهم الأسس والمؤثرات التي قامت عليها

فلسفته، وتطرقت إلى ذكر فلسفته بشكل عام، وأوضحتُ أخيرا النظرة النقدية لديه وختمت بحثي بذكر أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها.

تبرز أهمية البحث في:

1. التعرف على المثالية ودراستها ومعرفة أفكارها
2. أن المثالية لم تعد مذهبا قديما، بل أخذت أشكالا وطرائق جديدة لنشر أفكارها، فكان لابد من التطرق لفلسفة كانط .
3. جهل الكثير بأفكار المثالية وعدم وضوح الصورة الحقيقة لها.

وكان سبب الاختيار لهذا الموضوع تتلخص في أهمية دراسة هذه المذاهب الفلسفية التي تستهدف أفكارها مسائل العقيدة، وأصول الدين،

أهداف البحث والغاية منه:

1. تسليط الضوء على نموذج من اهم الاتجاهات المثالية وهي المثالية المتعالية عند كانط.

مَنْهَجْ البَحث

تم استخدام المنهج التحليلي

مفهوم المثالية:

المثالية في معناها الفلسفي العام تطلق على النزعة الفلسفية التي تقوم على رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معانيه، وهي بهذا المعنى مقابلة للواقعية الوجودية التي تقرر ان هناك وجودًا مستقلا عن الفكر(صلبيا، 1982م، 337).

إذن من خلال هذا المعنى العام يتضح لنا أن المثالية اسم لمذهب يكون مقابلا للمذاهب المادية، وهذا الاسم العام "المثالية" تندرج تحت ظلاله عدد من التيارات المثالية التي تتميز عن بعضها البعض في سمات معينة وأوصاف مخصصة كما سنبينه في المطلب الثالث.

والجدير بالذكر أن أول من استعمل لفظ المثالية في اللغة الفلسفية هم فلاسفة القرن السابع عشر، لاسيما (ليبنيز) الذي جعل المثالي مقابلا للمادي(صلبيا، 1982م، 337).

وجاء في المعجم الفلسفي(المعجم الفلسفي، 1403هـ، 170) أن المثالية بوجه عام هي اتجاه قوامه رد كل وجود إلى الفكر بأوسع معاني هذا اللفظ، فوجود الأشياء مرهون بقوى الإدراك، وتقابل المذهب الواقعي.

أما في القديم فإن أفلاطون ذهب إلى أن المعاني والمثل مفارقة في عالم خاص بها هو عالم المعقولات، وهي نماذج وأصول للعالم الحسي، فالمثل هي وحدها الموجودات الحقيقية وليست الأشياء إلا مجرد أشباح للمثل وتلك هي المثالية الأنطولوجية.

وأما في الحديث فإن كانط ذهب إلى أن المثالية هي التي تعد الظواهر مجرد تصورات لا أشياء في ذاتها، وتلك المثالية الأبستمولوجية أي المتعلقة بالمعرفة.

ومن خلال التعاريف السابقة نخلص إلى أن المثالية هي التي تحول كل مواضيع التجربة والأشياء إلى أنها شيء عقلي يدرك بالذهن، بخلاف الواقعيون الذين يعترفون بوجود عالم خارجي مستقل عن العقل.

والجدير بالذكر أن المثالية باعتبارها استراتيجية فلسفية تقبل التوصيف بثلاث علامات على الأقل:

1. باعتبارها نظرية وجود (أنطولوجيا) تدعي المثالية وجود ذوات روحية (المثل) لا تقبل الرد إلى الذوات المادية.
2. وباعتبارها نظرية المعرفة فإنها تمثل الأطروحة القائلة إن العالم الخارجي الذي يظهر للإنسان ليس مستقلًا عن تصورات الذات المفكرة.
3. وباعتبارها أخلاقًا تخصص المثالية نظرة معيارية لتأسيس العمل وتبريره انطلاقًا من مبادئ عقلية(رندكولر، 2012م، 37/1).

خصائص وأنواع المثالية:

بعد التطرق لمفهوم المثالية وبيان معناه العام الذي تشترك فيه جميع تياراته المتعددة، كان من المناسب أن نذكر أبرز الخصائص التي تلتقي فيها التيارات المثالية على اختلافها وتعددها، وفي مايلي عرض لذلك(كيشانة، 2018م، 52).

أولًا: تُقسم المثالية العالم إلى عالمين: عالم المثل أو ما يسمى عالم الأفكار، وهذا العالم عند المثاليين هو العالم الحقيقي، وعالم المادة وهو في نظرهم عالم شكلاني، لا يستمد وجوده إلا من عالم الروح.

ثانيا: المثالية تعلق وجود الأشياء والمواد على وجود العقل الذي يرك هذه الأشياء.

ثالثًا: تنظر المثالية للروح والعقل نظرة سامية بخلاف نظرتها للجسد والمادة.

رابعًا: الحقائق في العالم المثالي لا توجد في العالم المادي، وإنما توجد عالم الأفكار.

خامسًا: هذه الحقائق المثالية هي مطلقة وثابتة وأزلية؛ وعليه فإنها صالحة لكل زمان ومكان.

سادسًا: المثالية تعلي من قدر العلوم العقلية على حساب العلوم الطبيعية، أي أنها تهتم بعلوم الفلسفة والرياضيات على حساب علوم الفيزياء والكيمياء وغيرها.

ومن خلال هذه الخصائص من الممكن القول بأن المذاهب المثالية تهدف إلى تحقيق الكمال الإنساني؛ وذلك لأنها تؤمن بأن النفس الإنسانية قد جاءت من عالم الخلود، وكذلك فإن المذاهب المثالية تسعى إلى إكساب الإنسان القيم الفاضلة، سواء كانت هذه القيم متمثلة بالسلوك أم الأخلاق، ولا شك أن هذا ينمي الجانب الروحي لدى الفرد بحسب المذهب المثالي(كيشانة، 2018م، 56).

أنواع المثالية:

بعد الحديث عن مفهوم المثالية أولًا ومعرفة أبعاده ومعانيه، ومن ثم الكلام عن الخصائص المشتركة بين المذاهب المثالية، فإننا نعرض في هذا المطلب أبرز المذاهب المثالية لنكون فكرة عنها ونعرف أهم روادها ومؤسسوها.

أولاً: المثالية التقليدية: وهذه المثالية تعرف بالمثالية المفارقة، وهي تنسب إلى أفلاطون، الذي فرق بين عالمي المثل والحس، وعالم المثل هو العالم الحقيقي عنده بخلاف عالم الحس الذي لا يعدو أن يكون ظلا زائفًا.

ثانيًا: المثالية الذاتية: وهذه المثالية تنسب إلى أشهر أعلامها رينيه ديكارت، وجورج باركلي؛ ومثالية ديكارت تنطلق من الكوجيتو الديكارتي القائل أنا أفكر إذا أنا موجود، وأما المثالية اللامادية عند جورج باركلي فتنطلق من الاعتقاد بأن إدراك الشيء يعني وجوده، وأن وجود الأشياء ليس لها وجود مستقل عن وجود الإنسان.

ثالثًا: المثالية النقدية: –وهي محور هذا البحث– وهي التي ظهرت على يد الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط، الذي جعل مثاليته تدور في شقين جوهريين، العقل القائم على التجربة الممكنة والإرادة الخيرة، والمثالية عنده نقدية باعتبارها جعلت العقل مصدرها الرئيس.

رابعًا: المثالية المطلقة: وتنسب هذه المثالية إلى الفيلسوف هيجل الذي هاله كم التناقض الظاهر في الفلسفة الحديثة، وربما الفلسفات السابقة أيضًا، وقامت مثاليته على أساس القضاء على هذا التناقض من خلال نسق عقلاني أسماه المعرفة المطلقة، أو الفكرة المطلقة؛ التي تقول بأن الوعي يسبق المادة(كيشانة، 2018م، 61).

المثالية عند ايمانويل كانط.

التعريف بإيمانويل كانط.

هو فيلسوف ألماني، ولد ومات في كونيغسبرغ (بروسيا الشرقية) (22 نيسان 1724– 12 شباط 1804)، من أسرة من البرجوازية الصغيرة يرجع أصلها فيما يبدو إلى اسكتلندا، كان أبوه سراجًا وكان على قدر طفيف من اليسر، وكانت أمه من أتباع الحركة التقوية وعلى قدر كبير من الورع، وقد تركت تأثيرًا عميقًا في نفسه(طرابيشي، 2006م، 518).

درس في جامعة كونيغسبرغ وشغف خاصة بالفلسفة والطبيعيات، وكانت دراسته منصبة على دروس الفلسفة العامة أكثر من دروس اللاهوت؛ وذلك راجعًا إلى تعليمه الذي تلقاه في طفولته الذي أورثه مقتًا لشكليات الدين.

يقول ويل ديورانت مقررا هذا المعنى: "وأدى به –يقصد كانط– هذا الانغماس الشديد في الدين إلى نتيجتين، أولاهما أن أحدث هذا التطرف في العبادة في نفسه رد فعل أدى به إلى اعتزال الكنيسة في أيام نضجه ورجولته، وثانيهما هو أنه احتفظ إلى النهاية بطابع الكآبة الذي يميز الألماني المتدين..." (ديورانت، 1988م، 326).

ومن خلال ما سبق يتبين لنا الأثر التربوي الديني الذي خلفته نشأت الفيلسوف كانط في محيط البيئة الدينية المتشددة فكان لها بالغ الأثر في تكوين شخصيته واتخاذ موقفه من الدين.

لقد عُرف كانط بنبوغه العقلي وبقدراته البارزة، فقد كان يدرس في أقوى المدارس في مملكة بروسيا حيث كانت تلك توصية القس شولتز لأهله أن يلحقوه بها، وقد درس أغلب اللغات في زمانه من اللاتينية واليونانية إلى العبرية والفرنسية، وبالإضافة إلى تنوع دراساته(كرم، 1971م، 195).

المؤثرات الفكرية في تكوينه وفلسفته:

بعد الحديث عن نشأة الفيلسوف ايمانويل كانط وأخذ تصور عام عن حياته لابد من الحديث عن المؤثرات الفكرية التي كان لها الأثر في توجيه فلسفته وتحديد مسارها، وذلك لأن الإنسان ابن بيئته وهو معرض للصيرورة والتغير على حسب ما يمليه عليه واقعه ومحيطه، وفيما يلي عرض لأبرز المؤثرات الفكرية التي كونت عقلية الفيلسوف الألماني ايمانويل كانط:

أولًا: المؤثر الديني: وذلك من خلال نشأته في كنف أسرته التي كانت متشددة على التقاليد المسيحية، لاسيما بانتسابها إلى فرقة "التقوية" التي اشتق اسمها من التقوى والورع.

يقول إميل بوترو: "نشأ كانط في صباه نشأة (قنوتية) أخلاقية فيها صلابة وتقشف فتركت تلك التربية في نفسه أثرًا عميقًا... وقد كانت (القنوتية) في البروتستانتية تمثل المعارضة بين القلب والحياة الباطنة والإيمان الشخصي وبين التعاليم المفروضة الجافة، والشعائر والمراسيم (الشكلية)" (بوترو، د.ت، 13).

ثانيا: المؤثر السياسي: لقد عاش كانط في عصر التنوير وأثر وتأثر بكل معطيات ذلك العصر، وكان من المطالبين بحقوق الإنسان والمساواة، ولقد دافع عن حكومة بلاده.

يقول ويل ديورانت في تأكيد هذا المعنى عن آراء كانط الإصلاحية: " أدت أفكاره في أيام نضجه ورجولته – يقصد كانط– إلى اعتناق مذهب الأحرار والإيمان بالحرية والدعوة لها بشجاعة وجرأة في أيام فريدريك الكبير". ويضيف قائلًا: "كان من الممكن الحكم عليه بالإعدام بسبب هذه الأفكار الحرة التي تتنافى مع نظام الحكم في ذلك الوقت"(ديورانت، 1988م، 327).

ثالثًا: المؤثر العلمي: لقد درس كانط أعمال إسحاق نيوتن وكتاباته التي جعل منها أساسًا لمحاضراته في الفيزياء وفلسفة الطبيعة، تقول الدكتورة حنان عواضة: "فإننا كلما بحثنا في فلسفته نجده يؤكد على التجربة والعلم التجريبي وتأثره بنيوتن وكوبرنيكوس، وفي الوقت نفسه هو من أبرز الفلاسفة العقليين، وعلى هذا أراد أن يستخدم العقل من أجل إيجاد (ميتافيزيقيا علمية) بدلًا من (الميتافيزيقيا التقليدية) التي ظهرت منذ أرسطو" (عواضة، 1433هـ، 203).

وبناء على ذلك من الممكن القول إن تطور فكر الفيلسوف ايمانويل كانط أخذ مجراه من خلال عدد من المؤثرات بداية من تربية الأسرة ونشأته الدينية، ثم كان للمشاركة السياسية والمساهمة المجتمعية لتحرير أفراد المجتمع الدور الكبير أيضًا في تكوينه، وأخيرًا كان للدور العلمي الذي تلقاه في جامعته أثناء دراسته انعكاس على شخصيته وأفكاره.

فلسفة كانط:

من خلال النظر في تاريخ الفلسفة على مداه التاريخي نجد بشكل ملحوظ أن الفكر الفلسفي يبنى على تراكم فكري؛ فكل فيلسوف غالبا قد تأثر بمن سبقوه من الفلاسفة، ولذلك فإننا نجد أن هناك تقاربًا في الأفكار واشتراكا في المفاهيم ولو كان يعتريها بعض الاختلاف، وتعتبر فلسفة كانط بمثابة هزة للعالم وايقاظ له من سباته العقائدي كما يصرح بذلك ويل ديورانت(ديورانت، 1988م، 315).

لقد تطورت الفلسفة الغربية بعد بيكون وديكارت في اتجاهين أساسيين، أولهما: الاتجاه التجريبي، الذي أعطى للحواس قيمتها المعرفية، وثانيهما: الاتجاه العقلي الذي أرسى دعائمه ديكارت.

ورغم الاختلاف في الرأي بين أنصار الاتجاهين إلا أن القاسم المشترك الذي جمع فلاسفة هذا العصر هو اعتزازهم الشديد بقيمة العقل وقيمة العلم، وقد لاحظ كانط على معاصريه أمرين هامين أولهما: مغالاتهم في الإعلاء من قدرة العقل، وثانيهما: أنهم نظروا إلى العالم الطبيعي على أنه عالم التغير والمادة المحسوسة فقط، وأنه لا يشتمل على الكلي والضروري(النشار، 2017م، 154).

لقد كان موقف كانط من هذين الاتجاهين موقفًا عادلا، غير متحيز لأحدهما على حساب الآخر وهذا نابع من رؤيته النقدية التي أعلت من قدر العقل، ولكنها أيضا لم تنجرف ورائه دون حذر وترقب، يقول أحمد الكرساوي في تقرير هذا المعنى: "بعد أن طغى المذهبان العقلي والتجريبي على الساحة الفلسفية جاء الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط ليجد حلًا للصدام بينهما، فتبنى موقفًا وسطًا وقرر أن المعرفة تتم بالحس والعقل معًا، فتمثلت فلسفته النقديةُ العقلانيةَ عند ديكارت، والتجريبيةَ عند لوك وهيوم"(الكرساوي، 1439هـ، 99).

لقد مرت فلسفة كانط بعدد من التجارب والتنقلات قبل أن تتمخض رؤيته الفلسفية على صورتها النهائية (النقدية)، ويمكن تقسيم ذلك إلى ثلاث اتجاهات رئيسية كما يلي(عواضة، 1433هـ، 645):

أولًا: الدجماطيقية: وهي تمثل طفولة العقل –حسب كانط– وثقة كاملة بالمبادئ دون نقد مسبق، وتشمل الدجماطيقية (الجمود العقائدي) التجريبية والعقلية، لاسيما موقفهما من الميتافيزيقيا حيث تؤمن بعض المدارس الفلسفية بقضايا معينة دون تعقب العقل ونقده.

ثانيا: النزعة الشكية: يقول كانط: "لقد أيقظني ديفيد هيوم من سباتي العقائدي"(كرم، 1971م، 197) فديفيد هيوم قد أيقظ كانط من دجماطيقيته ودفعه إلى الشك؛ لأن هيوم من أكثر المفكرين ارتيابية، وتعد الشكية ذات أهمية كبيرة عند كانط بالقياس إلى دجماطيقيته؛ لأنها تكمن في رقابة العقل، وهذه الرقابة تؤدي إلى الشك. لهذا دفعه ذلك إلى التحول عن هذه المرحلة إلى محطته الأخيرة وهي المرحلة النقدية.

ثالثا: النقد: يتمثل في عقد محكمة للعقل الخالص، لأجل الانتقال من الشك إلى العلم عن طريق النقد لاسيما نقد الميتافيزيقيا إذ كان كانط يهدف إلى إيجاد أسس علمية لها، لأنها ليست علم.

يقول كرم متحدثًا عن كانط في هذا الصدد: "فآراؤه ونظرياته لم تصل إلى ما وصلت إليه من العمق والدقة إلا بفضل ما عول عليه من منهج نقدي، ونقده لم يبرز ولم يتميز إلا لأنه انصب على طائفة من المشاكل لم ينتبه إليها من سبقه من الفلاسفة والباحثين"(كرم، 2020م، 258).

وفي هذه المرحلة الأخيرة يتم التأليف عند كانط بين المذهب العقلي والمذهب التجريبي، والذي أطلق عليه اسم (الفلسفة النقدية) التي تمثلت في كتابه نقد العقل المحض، ويقول إميل بوترو في تقرير هذا المعنى: " ان مذهب الفيلسوف –يعني كانط– يمثل جهد الذهن البشري للتوفيق بين هذين الاتجاهين في الفلسفة" ويضيف قائلاً: "وقد وقع هذان المذهبان في صعوبات خطيرة، ولم تستطع المدرستان أن تتغلبا عليها، فتسائل كانط عما إذا كانت المسألة موضوعة وضعا غير صحيح، وعما إذا لم يكن من قبيل الوهم أن نتخيل رابطة معرفة بين الذهن والأشياء الخارجة عنه أو الأشياء كما هي عليه؛ فمذهبه يبدو لنا نتيجة لهذه الدراما الفلسفية الكبيرة القائمة بين العقليين والتجريبيين في ابان القرنين السابع عشر والثامن عشر"(بوترو، د.ت، 18).

ومن هذا المنطلق تتضح العلاقة التكاملية بين المراحل التي مر بها كانط في مسيرته الفلسفية حيث انتهى المطاف به إلى الجمع بين فضاء الحس والتجربة مع العقل، مع التأكيد بوجود مقولات سابقة في العقل؛ فالتجربة عنده تقدم معطيات حسية منفصلة، فهي مادة خام، والعقل يتلقفها بقوالب وإطارات قبلية تنظمها وترتبها.

يقول كانط: "تبدأ معرفتنا كلها مع التجربة، لا ريب في ذلك البتة؛ إذ كيف تستيقظ قدرتنا المعرفية إلى العمل إن لم يتم ذلك من خلال مواضيع تصدم حواسنا، فتسبب من جهة حدوث التصورات من تلقائها وتحرك من جهة أخرى نشاط الفهم عندنا إلى مقارنتها وربطها أو فصلها، وبالتالي إلى تحويل خام الانطباعات الحسية إلى معرفة بالمواضيع تسمى التجربة، زمنيًا لا تتقدم إذن أي معرفة عندنا على التجربة، بل معها تبدأ جميعا" ويضيف: "

كل معرفتنا تبدأ بالحواس وتنتقل منها إلى الفاهمة وتنتهي في العقل" ومع ذلك يؤكد كانط على أن هناك معارف قبلية لم تستمد من التجربة(كانط، 2015م، 53، 253).

وهذه المعارف القبلية هي ما يطلق عليها بالمقولات؛ وهي الأطر العقلية التي نؤطر كل معارفنا الحسية المحدودة بزمان ومكان معينين في إطارها، يقول مصطفى النشار: " والحقيقة أننا في نظر كانط لا نستطيع أن نفكر بدون هذه المقولات التي بفضلها ندخل على شتات الإحساسات التي جمعناها بواسطة الحواس نظاما ووحدة واتساقًا، فالإحساسات مجرد انفعالات نحس بها حينما نتصل بالأشياء من خلال الحواس، أما الفكر فلابد أن يكون فاعلا أي لابد له أن يفرض الوحدة والنظام من خلال مقولات الذهن على تلك الانفعالات، فتصبح معرفتنا بالأشياء معرفة دقيقة مترابطة الأجزاء منسقة غير متناقضة"(النشار، 2017م، 162).

نتيجة لذلك تمخضت مثالية كانط المتعالية؛ وهي أن يكون هناك أحكام فطرية متعالية تسمو على التجربة؛ فالزمان والمكان –على سبيل المثال– لا وجود له عند كانط بل نحن من أدرك هذه الأشياء في الوجود؛ ولأجل ذلك جهز الله الإنسان بمقولة الزمان، وهذا التجهيز يستحيل أن يكون مكتسبًا –وهنا كانط يضرب التجريبيين– لأن الوجود بزعم كانط لا يعطيك الزمان، فلابد حينئذ من أن العقل فيه شيء لم تنتبه له الفلسفة التجريبية، فهناك أوعية في العقل تستقبل من الوجود ما يُمكن العقل من الإدراك.

المذهب النقدي عند كانط

كانط والميتافيزيقيا.

يقول كانط: "كان اهتمامي بالميتافيزيقيا وما وراء الطبيعة، ولكن محبوبتي لم تطلعني على شيء". ومن أجل ذلك حاول كانط أن يكون واقعيًا في مسألة الميتافيزيقيا التي لا تكاد تخلو منها فلسفة، فتوقف عن الأشياء الخارجة عن الزمان والمكان؛ وذلك لأنه وجد أن الفلسفة لاتزال في مكانها لم تتقدم في مجال بحث القضايا الميتافيزيقية من أمثال قضية وجود الله ومعنى النفس.

ويرى كانط أيضًا: "أن الميتافيزيقا التي تريد أن تكون علمًا هي التي تستند إلى نقد العقل، الذي يحدد الحدود التي لا ينبغي للعقل أن يتجاوزها، والذي يخضع للنقد يعتمد على تصورات قبلية يردها إلى مصادرها الثلاثة هي: الحساسية، والذهن، والعقل"(عواضة، 1433هـ، 642).

ويضيف مصطفى النشار: "لقد أراد كانط إذن أن يجعل ميدان البحث الفلسفي كميدان البحث العلمي هو عالم الظواهر، وإذا ما التزم الفلاسفة بذلك فإنهم سيقدمون في نظره الفلسفة أو الميتافيزيقيا المشروعة التي تتقيد بحدود العالم الطبيعي والتجربة الإنسانية فيه"(النشار، 2017م، 159).

وهذا يأخذنا إلى طرح سؤال عريض في غاية الأهمية، وهو كيف نصل إلى الفلسفة المشروعة التي يريدها كانط من خلال عالم الظواهر؟

يجيبنا مصطفى النشار عن ذلك ويقول: "بأن نقطة البدء في هذه الفلسفة –عند كانط– بعد أن يتعهد الفيلسوف بالالتزام بحدود عالم الظواهر ولا يحاول تخطيه إلى ما ورائه" ويضيف قائلًا: "هو أن ندرك حقيقة هامة أكدها فيلسوفنا –يقصد كانط– ويؤمن بها وهي أن الموضوعات لكي تعرف لنا فلا بد أن تدخل في إطار التصورات والمبادئ التي تملكها أذهاننا، أي أن معرفتنا بالعالم الخارجي عالم الظواهر لا تتم إلا إذا استطعنا أن نلملم شتات الأشياء وأن نفرض عليها النظام والوحدة بفضل ما لدى أذهاننا من تصورات ومبادئ نطلق عليها اسم المقولات"(النشار، 2017م، 160).

لذلك وصف كانط الميتافيزيقيا بأنها كالمحيط المظلم الذي لا شاطئ له ولا فنار تحطمت بين أمواجه نظم فلسفية عدة، وعلى الرغم من ذلك أنه كان يغامر في البحث في مسائل الميتافيزيقيا الغامضة، محاولا أ يقيم البحث الميتافيزيقي على أسس صحيحة، وقد اتبع طريقان: الأول سلبي هو نقد ما في الميتافيزيقيا القديمة من أخطاء، والثاني: إيجابي هدفه تقويم الميتافيزيقيا أو رسم منهج قويم للميتافيزيقيا الجديدة والعلمية التي يريد أن يؤسسها(بيومي و كرم، د.ت، 212).

ومن خلال ما سبق يتبين لنا حدود الفلسفة المشروعة كما يريدها كانط، وهي أن تكون الفلسفة تصب جل اهتماماتها على تفسير عالم الظواهر ومحاولة فهمه باستخدام مقولات الذهن الأولية.

نقد العقل المحض والعقل العملي.

تمت الإشارة سابقًا على محطة كانط الأخيرة التي تمثل جوهر فلسفته وهي المرحلة النقدية، وهذه المرحلة كما تقول عنها الدكتورة حنان عواضة: "لقد غطى كانط كل فلسفته بمنهجه النقدي، واعتبر أية فكرة أو فلسفة لابد أن توضع تحت اختبار النقد لبيان تناقضها وأخطائها، وبعدها يشيد بناءًا جديدًا سواء في نظرية المعرفة أو في الأخلاق أو في الجمال".

ونقد العقل الخالص هو امتحان لقيمة العقل نفسه، من حيث استعماله النظري الذي يتوخى الحقيقة غاية له(أمين، 1967م، 60).

وينبغي لنا أن نتنبه إلى أن فلسفة النقد ليست فكرة انفرد بها كانط، بل على الرغم من شهرته في الفلسفة النقدية إلا أنه قد سبقه الكثير من الفلاسفة والعلماء في الحديث عنها وتبنيها، ولكن كانط يختلف معهم في أنه قد تعمق في نقده وتوسع وأراد أن يغطي جميع جوانب الفلسفة في نقده(عواضة، 1433هـ، 644).

وفي هذا الإطار يقول يوسف كرم: "لم يبتكر كانط النقد، ولم يخلقه من عدم، وإنما سبقه إليه مفكرون كثيرون من فلاسفة ومؤرخين وأدباء وفنانين، وامتاز القرن الثامن عشر خاصة بروح نقدية واضحة بيد أن الجديد لديه أنه تعمق فيه، وطبقه في مدى فسيح، فكان يفترض الفروض، ويعود عليها ناقدًا ومناقشًا، وقد يصل به الأمر أن يناقش الفرض ونقيضه في آن واحد..."(كرم، 2020م، 260).

وثورة كانط تكمن في توجيه الفكر الفلسفي نحو نقد آلته وهي (العقل) الذي طالما تغافلت عنه الفلسفة –على حد قوله– على الرغم من أنها تعتمد عليه في عملية التفلسف، فكان هذا الموقف الشجاع الذي تبناه كفيل بأن يجعل فلسفته باقية حتى وقتنا الحالي.

يقول مصطفى النشار: " ولقد كان السؤال الذي كثير ما راود كانط وجعله يقدم فلسفته النقدية التي غيرت وجه الفلسفة في العصر الحديث ووضعت العقل لأول مرة تحت مجهر النقد، لقد كان السؤال هو إلى أي حد يمكن أن نثق في العقل ونطمئن إلى قدرته في الوصول إلى يقين يشبه اليقين العلمي في المعارف الرياضية والفيزيائية؟"(النشار، 2017م، 153).

ويضيف عثمان أمين: "أراد كانط كما أراد سقراط وكما أراد ديكارت، أن يستخدم العقل في معرفة ما يقول، ومعرفة ما يحق له أن يقول، ولكن طرافة كانط أنه قد فرض على العقل نفسه أن يذعن للنقد، وأنه بهذا النقد قد استبان ادعاءات غير مشروعة في بعض المجالات، ووطد سلطانه في مجاله الخالص الذي ليس له مجال سواه"(أمين، 1967م، 59).

وبالرجوع إلى عنوان كتابه (نقد العقل الخالص أو المحض) فإن كانط لا يعني بذلك مجرد النقد؛ ولكنه يريد النقد التحليلي، فهو لم يهاجم العقل الخالص، بل كان يرجو أن يظهر امكانياته، ويرفعه ويضعه فوق المعرفة غير النقية التي تأتي إلينا عن طريق المعرفة المشوهة التي تنقلها الحواس... فقد أراد أن يرى هل في طبيعة العقل التي فطر عليها ما يمكنه من الوصول إلى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي(ديورانت، 1988م، 333).

وفي تأكيد هذا المعنى يقول أزفلد كولبه: " إن كانط لم يقصد من نقده الفلسفة ما بعد الطبيعة إلى البرهنة على استحالتها استحالة تامة، وإنما أراد أن يظهر تهافت أصحابها فيما يقطعون به من دعاوى، وينكر عليهم القيمة العلمية لنتائج بحوثهم..."(كولبه، د.ت، 282).

وبناء على ماسبق فإن كانط بعد ذلك أراد أن يخلص الفلسفة من المأزق الذي وقعت فيه والتي من خلاله لم تبرح مكانها ولم تتقدم خطوة إلى الأمام في موضوع الميتافيزيقيا على مر العصور، فأراد أن يضع العقل تحت عدسة البحث والنظر ليكون موازيًا للعلم.

ومن هذا المنطلق يقول مصطفى النشار: "إن الإجابة على التساؤل السابق تتطلب أولا أن نحدد كيف تم التطور في العلوم أو بمعنى أخر نحدد شروط المعرفة العلمية الصحيحة، وإذا ما تم لنا هذا يمكننا بعد ذلك أن ننظر في المعرفة الفلسفية محاولين حدها بهذه الشروط مع الأخذ في الاعتبار تميز المعرفة الفلسفية عن المعرفة العلمية.

نقد العقل العملي.

من خلال العرض السابق للفلسفة النقدية لكانط المتمثلة في كتابه "نقد العقل الخالص" لاسيما فيما يتعلق بمسألة الميتافيزيقيا وعن مسألة وجود الله، والدين، والخلود وغيرها.. هل أصبح بحسب –كانط– محرمًا على الإنسان أو الفيلسوف أن يبحث فيما وراء هذا العالم؟

يقول مصطفى النشار في محور حديثه عن شروط الفلسفة المشروعة عند كانط: لقد ميز كانط بين العقل النظري، وبين العقل العملي وحدد مهمة العقل النظري بالحدود التي سبق ذكرها؛ وذلك حتى يحد من شطحاته وتخيلاته في تناول الموضوعات الماورائية، أما العقل العملي فقد جعل مهمته التسليم بوجود الله، وبوجود النفس..الخ لأن الإنسان بنظر كانط لا يمكنه أن يعيش حياته السوية إلا إذا آمن بمجموعة من المبادئ والقيم التي تهديه إلى السلوك الأخلاقي القويم.

ويعود نقل كانط لهذه الموضوعات من التفكير العقلي النظري إلى العملي لسببين: أولهما: أنه مهما تناقش الفلاسفة حول هذه الموضوعات فإنهم لن يصلوا بصددها إلى اليقين إما إثباتا أو نفيا. وثانيهما: أننا نحتاج في حياتنا الأخلاقية العملية إلى الاعتقاد في وجود الله ووجود النفس. فعلى مبدأ كانط ما لا نستطيع الوصول إليه عن طريق العقل النظري فإننا نصل إليه عن طريق السلوك العملي.(النشار، 2017م، 158).

ويعلل كانط عدم امكان قيام الدين على أساس العلم أو اللاهوت؛ لأن بناءه على أساس من اللاهوت ليس مأمون الجانب ويعرضه بطبيعة الحال إلى الخطر، وبناء عليه فالأفضل التخلي عن اللاهوت النظري، والقضاء عليه وأخذ الدين بعيدًا عن متناول حكم العقل وسيادته إلى تشييده على أساس من الأخلاق المطلقة غير المستمدة من التجربة أو الاستنتاج المزعزع، وهذا الأساس يستمد من باطن النفس.

ومن هذا القانون الأخلاقي يرى كانط فيه دليلا واضحا على وجود الله تعالى، يقول ويل ديورانت: "وأخيرًا فإن هذا الدليل الذي أثبت حرية الإنسان وخلوده ينهض برهانا على وجود الله؛ لأنه إذا كان الشعور بالواجب يتضمن ويبرر الإيمان في الجزاء الذي سيأتي أي في التسليم بالخلود، فإن الخلود لا بد أن يتبعه فرض وجود علة متكافئة مع معلولها أو بعبارة أخرى فإن هذا يؤدي إلى التسليم بوجود الله"(ديورانت، 1988م، 353).

الخاتمة

وختاماً فهذه الورقة حاولت فيه تناول نموذج من التيارات الفلسفية وهو التيار المثالية والحديث عن مفهومه بشكل عام، مع ذكر أهم وأبرز الخصائص التي تشترك فيها المذاهب المثالية، وركز بحثي على ذكر مثالية كانط المتعالية وسلطت الضوء على مؤسسها إيمانويل كانط، وذكر أهم الأسس التي قامت عليها فلسفته؛ حيث اتخذ من النقد مفتاحا للدخول لكل المجالات، حتى العقل أيضًا الذي طالما تجاوزته الفلسفة فإن كانط وجه سهام النقد له، ودلفتُ بعد ذلك إلى بيان المؤثرات الفكرية التي كان لها دور في تكوين فكر كانط وبناء فلسفته، حيث كانت تربيته الدينية المتشددة لها دور في تشكيل حياته، وكذلك النظام السياسي آنذاك، وبالإضافة إلى التكوين العلمي الذي تلقاه في دراسته، وأخيرا ختمت بحثي بذكر فلسفته النقدية المتمثلة في كتابيه نقد العقل المحض، ونقد العقل العملي.

وهذا عرض لأهم النتائج التي توصلت إليها وبعض التوصيات:

النتائج:

1. المثالية مذهب يعلي من الجانب الروحي، ويرى بأن العقل هو أساس الأشياء.
2. مثالية كانط المتعالية قد تشكلت من مجموعة من الأفكار والرؤى الفلسفية السابقة.
3. أسس مثالية كانط المتعالية تقوم على أن هناك مقولات في الذهن هي الأساس وهي السابقة على التجربة.

المصادر والمراجع

1. أمين، عثمان(1967م). **رواد المثالية في الفلسفة الغربية**، دار المعارف، الإسكندرية.
2. بوترو، إميل(د.ت). **فلسفة كانط، ترجمة:** عثمان أمين، د.ن.
3. بيومي، إبراهيم وكرم، يوسف(د.ت). **دروس في تاريخ الفلسفة**، وزارة المعارف، مصر.
4. ديورانت، ويل(1988م). **قصة الفلسفة**، مكتبة المعارف، بيروت، ط6.
5. زندكولر، هنس(2012م). **المثالية الألمانية**، م1، ترجمة: أبو يعرب المرزوقي، الشبكة العربية للأبحاث، بيروت، ط1.
6. صليبا، جميل(1982م). **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
7. طرابيشي، جورج(2006م). **معجم الفلاسفة**، دار الطليعة، بيروت، ط3.
8. عواضة، حنان علي(1433هـ)؟ **الفلسفة النقدية لكانط "طبيعتها وتطبيقاتها"**، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الفلسفة، عدد 203.
9. كانط(2015م). **نقد العقل المحض**، ترجمة: موسى وهبة، دار التنوير، بيروت.
10. الكرساوي، أحمد(1439هـ). **مدخل إلى نظرية المعرفة**، تكوين للدراسات والأبحاث، الخبر، ط2.
11. كرم، يوسف(1971). **تاريخ الفلسفة الحديثة**، دار المعارف، مصر.
12. كرم، يوسف(2020م). **تاريخ الفلسفة للمبتدئين**، دار هلا للنشر، ط3.
13. كولبه، أزفلد(د.ت). **المدخل إلى الفلسفة**، ترجمة: أبو العلاء عفيفي، عالم الأدب للترجمة، بيروت.
14. كيشانه، محمود(2018م). **المثالية مفهومها وأنواعها وفلاسفتها**، المركز الإسلامية للدراسات الاستراتيجية.
15. المعجم الفلسفي(1403هـ). **مجمع اللغة العربية**، القاهرة.
16. النشار، مصطفى(2017م). **مدخل جديد إلى الفلسفة**، نيو بوك للنشر، القاهرة.